

دراسات في النقد^(١)

طريقة أرسطو في النقد الأدبي

بقلم محمد رشاد رشدي

كتب (أوسكار وايلد) مرة يقول: إن أعلى أنواع النقد هو سجل الروح. فالناقد لا يرى في العمل الفني أكثر من وحى يوحى إليه بعمل جديد شخصي قد لا يكون بينه وبين العمل المنتقد أي وجه من وجوه الشبه، هذا الرأي (لأوسكار وايلد) يصف لنا مدرسة بأجمعها من مدارس النقد - أعني بها مدرسة الشعوريين. وفي ضوء هذه المدرسة سأحاول أن أستخلص طريقة (أرسطو) في النقد ومدرسته. فإذا ما فرغت من هذا حاولت أن أناقش هاتين المدرستين مع أي مدرسة أخرى قد تمت إليهما بسبب

ولأجل أن تكون المناقشة جلية واضحة سأبدأ الآن بأن أنتطف من بعض النقاد نبدأ كتبوها عن شكسبير

كتب الناقد الفرنسي (تين) عن الشاعر الكبير فقال: «أظهر ماني شكسبير خياله القوي الذي لا يعرف قناعة أو راحة، فهو يعمد الاستعارات فوق كل ما يكتبه، وفي كل لحظة تنغير خواطره إلى صور قوية واضحة، ويمرض لنا عقله رسومات وأشكالاً متتابعة، وشكسبير لا يرى الأشياء أبداً في هدوء. بل إن قوى عقله جميعها تتركز في الصورة أو الخاطر الذي يعالجه تركزاً يملك عليه كل نفسه ويمتص كل قواه الأخرى. إن كتابنا للتوسطين يحملون كل همهم في أن تكون كتاباتهم منطقية واضحة جلية وهم في الغالب يصيرون ما يقصدون، بيد أن شيئاً واحداً يبق سبيداً عن متناولهم. ألا وهو الحياة

أما شكسبير فهو على عكس هذا يبدع الوضوح والنطق لنفسيهما ويحمل كل همهم أن يصيب ما يكتبه الحياة والحركة. ولهذا السبب يبدو شكسبير لنا غريباً وقويماً، مبدعاً وخالقاً أكثر من أي شاعر من شعراء عصره أو غير عصره. أبداع من وصف

(١) هذه هي أول دراسات في النقد الأدبي الغربي سانبها بدراسة تفصيلية لطور النقد عند الانجليز منذ نشأته الى وقتنا الحاضر

النفس البشرية، وأبعد الشعراء عن النطق وتفكير القدماء المترن، وأقدرهم على أن يثير في النفس دنيا من الأشكال والصور الحية التي لا تموت»

وكتب (كارليل) عن نفس الشاعر يقول: «إنه لفيما أحميه رسم الصورة - معالجة الرجال والأشياء تكون عظيمة شكسبير. فعظمة الرجل تأتي يقيناً من هذه الناحية - من العين البصرة، تلك هي العين التي تكشف لنا عن الموسيقى الكامنة في الخلق. عن الفكرة الجميلة التي قد ضمنها الطبيعة مخلوقاتها جميعاً. على أن الشاعر لأجل أن تكون لديه هذه الهبة يجب أن يكون عنده من العقلية القوية ما فيه الكفاية. فإن امتلاك الرجل عقلية قوية كان شاعراً في كلامه. فإن لم يستطع هذا كان - وذلك أفضل وأجدي - شاعراً في أفعاله

وكتب (سير والتر رولي) عن شكسبير فقال: «إن قوة خياله لا تسمح له بأن يجد الراحة في فكرة أو ناحية واحدة فهو في استطاعته أن يدرس حياة الرجال مثلما يدرس ألراء الحياة على ظهر باخرة. وهو دائم الاهتمام بما يحدث يومياً بين أفراد العائلة الانسانية، غير أن للصورة دائماً في عقله أساس واحد تركز عليه، ذلك أنه دائم التفكير في البحر - البحر الذي لا يعرف لقوته حداً والذي لا يسره عقل أو منطق، والآن من الواضح أن النقاد الثلاثة مشتركون جميعاً في تحديد الصفات الأساسية التي تكون عظمة شكسبير كما أنه من الواضح أيضاً أنهم يختلفون كل الاختلاف في الطرق التي سلكوها في تقدم. فع (تين) يرى أن شاعرية شكسبير إنما تأتي من أنه أبعد الناس عن المنطق المادي وتفكير القدماء المترن؛ ومن (كارليل) نعلم أن ميزة الشاعر الأساسية في أن تكون عقلية ممتلئة ناشجة؛ ويبدو من هذا أن كلام الناقدين يستمد أن النقد إنما هو سجل روح الناقد ونفسه، «فتين» العاطفي القوي الخيال يزدري المنطق المادي، ويرى فيه عقبة في سبيل الشعر، و «كارليل» الذي كان اعتماده في حياته على فكره دون عاطفته يرى أن العقل وحده جدير بأن يخلق الشاعر وأن يجعله مبدعاً عظيماً

أما (رولي) فهو لا يفعل شيئاً من هذا، فهو يهتم فقط بأن يوضح ويطلق، وأن يشرح ويعلل دون أن يعنى بالمدح أو بالحط من قيمة الأشياء، ونحن في الواقع لا نستطيع أن نحكم

والناقد من أتباع تلك المدرسة لا يدع عملاً إلا إذا صادف هوى في نفسه وسد حاجة من حاجياتها؛ فان هو لم يفعل كان العمل باطلاً زائفاً، وكذلك من مميزات تلك الصنف من النقاد أنهم يمتنون بمحتويات العمل الفني أكثر من عنايتهم بالفن نفسه - أعني بالأسلوب والطريقة والجمال - كما أنك كثيراً ما تسمعهم يقولون: (حبذا لو ترك الشاعر هذا الموضوع وكتب في موضوع كذا وكيت)، وذلك كما لا يخفى أوداً أنواع النقد وأحطها قدرًا، إذ أن واجب الناقد الأول أن يفحص ويحكم على العمل الذي أمامه داخل دائرة العمل نفسه وحدوده لا خارجها، محاولاً أن يفهم ما يقصده الشاعر ويرى إليه، والى أي مدى استطاع أن يبلغ قصده وأن يبرز فكرته للقارىء

وقد يجدى أن نمطى هنا مثلاً من أمثلة هذه المدرسة النظرية الخاطئة لئى الى أى حد يمد (أرسطو) عنها ويرتفع كذب (أوسكار وايلد) أحد نقاد هذه المدرسة - فى رأى - يقول: (لأن نغضى من فن عصر من المصور إلى المصغر نفسه هو أكبر خطأ يرتكبه المؤرخون جميعاً، فالفن الردى الزائف كله إنما يأتى من الرجوع إلى الحياة والطبيعة والتسامى بهما إلى مراتب المثل العليا)

من هذه التبعة نستطيع أن نحكم بأن (أوسكار وايلد) كان يدين بهذا الرأى الذى يعطينا إياه - ولكننا لا نستطيع القول بأن شيئاً أو شيئاً معيناً أدى به إلى هذا الاعتقاد - كما أننا لا نستطيع أيضاً أن نحكم ما إذا كان هذا الرأى خاطئاً أم صحيحاً؟ وذلك لأن الناقد نفسه لم يخبرنا ولم يبال ما يقوله: لم يكن (أرسطو) يسمح لنفسه بأن يتقد بهذه الطريقة، ولكن تمال مى نرى كيف كان (أرسطو) يبلغ مثل هذا الرأى لو أنه كان يدين به مثلاً كان يدين الناقد الأنجليزى، فانه إذا ما قائل إن الفن الزائف إنما يأتى من الرجوع إلى الطبيعة والحياة أتبع قوله بأن ذلك صحيح لأن (هوميروس) لم يذهب إلى الحياة فى البحث عن مادته (هذه أمثلة فقط ولا تعتبر صحيحة)، وأن كل روعة فن (إيسكس) إنما تأتي من اعتمادها على أساطير الآلهة كاذبة لنفسه وأن فن (أريستوقانيس) كان أخط وأقل قيمة لأنه كان يصور الحياة ويستمد منها. ذلك أن (أرسطو) لا يسمح لنفسه بأن يكون نظرياً، بل يجب أن يطبق براهين وأمثلة وأسباباً لتليل ما يقول

ما إذا كان تفكير شكسبير الدائم فى البحر، البحر الذى لا يعرف لقوته حداً والذى لا يسيره عقل أو منطق، يزيد فى شاعرية الشاعر أو ينقص منها. ونحن لا نرى النقد هنا سجلاً لروح الناقد ومشاعره، وإنما كل ما نراه هو وضوح فى الأسلوب ودقة فى الوصف وقوة فى المنطق، وتلك هى مدرسة أخرى من مدارس النقد تختلف عن مدرسة (أوسكار وايلد) ينحو النقد فيها منحى البحث العلمى حيث لا نجد لشاعر الناقد نفسه أو لإحساسه الشخصى إزاء ما ينتقده أترأ من الآثار

تلك هى المدرسة الفكرية أو الاتباعية، وقد كان أول من أسسها الفيلسوف الأغرريقى (أرسطو)

ونحن لا نحس هنا أترأ لذات الناقد؛ فهو بعيد كل البعد لآزاه إلا كما نرى الرجل العلمى من خلال بحثه - الفكر والمنطق - ذلك هو الأساس الذى بنى عليه (أرسطو) طريقته فى النقد، كان الرجل دقيق الملاحظة للطبيعة والفن، وإله لمن هذين ينبوعين فقط نراه يستقى كل آرائه، يبنى كل نظرياته ويستنتج كل استقرائاته

وليس (لأرسطو) آراء شخصية يفرضها على القارىء؛ فهو إن مدح شيئاً فليس يمدحه لأن نفسه تتمسقه أو تميل إليه، ولكن لأن التجارب قد أثبتت أن هذا الشيء صحيح جدير بالتقدير. خذ مثلاً حديثه عن الشعر القصصى إذ يقول:

(أما عن البحر الذى يكتب فيه هذا الشعر فهو (بحر الأبطال)، فان أراد شاعر أن ينظم قصيدة قصصية فى غير هذا البحر، كان شعره شاذاً غير مألوف. إذ أن التجربة والطبيعة نفسها قد وقفت هذا النوع من الشعر على ذلك البحر)

(وأرسطو) لا يسمح لنفسه مطلقاً بأن تتمسك برأى من الآراء أو أن تمدح شيئاً أو تدم آخر دون سبب أو علة، بل هو يقنع بأن يشرح التبعيض دون ذمّه، وأن يظهر الجميل دون مدحه، شأنه فى هذا شأن أصحاب المدرسة الواقعية فى القصص الحديث، وهو فى هذا أيضاً يختلف عن أصحاب المدرسة النظرية فى النقد التى كتب عنها (أرنولد) يقول: (هى جماعة من النقاد ذات لون فلسفى باطل خداع، تجيش بنفوسها بعض الآراء الخاطئة التى لم تبناها التجربة والفكر، بل بنناها الأوهام والمواقف الذاتية تريد أن تفرضها على كل ما يقع فى يدها من شعر أو فن)

التي عليه أن يؤديها الشعر — مما يجعل البحث بعيداً عن روح العلم — في حين أن (أرسطو) لا يتساءل مطلقاً عن رسالة الفن أو الشعر في الحياة ، بل كل ما يهمه أن يبحث طبيعتهما وأن يشرحهما لنا — شأن العالم الكيميائي أو الطبيب —

وقد كان (لأرسطو) وجهة نظر في تقده خاصة به ، وأعني بها أنه كان يرى أن لكل فن من الفنون ، قصصاً كان أم شعراً غنائياً ، نهاية طبيعية لا بد أن يصل إليها وألا يتعداها ؛ فإن أراد صاحب الفن أن يتمدى بفنه نهايته كان مآله الفشل ومصيره السقوط الذي لا نجاة منه ، فقد يصل شعر شاعر مثلاً مرتبة النضوج والكمال ، وهو في سن الثلاثين ، غير أنه مهما عمّر الشاعر بعد ذلك من سنين ومهما زاده العمر من حكمة وتجارب ، فإن شعره لن يزيد ولن ينضج أكثر مما نضج — وقد لا يرى البعض هذا الرأي غير أنه — في اعتقادي — رأى لا بأس به ، ساعد على تكوينه لدى (أرسطو) حب الاغريق الفريزي للاعتدال والوسط ، وخوفهم من بطش الآلهة وغيرها إن اشتدّ الرجل منهم أو زها وعظم أكثر من اللازم . وقد كان التوسط والاعتدال رائد الاغريق في كل شيء ، ولم يكن التطرف عندهم ذنباً غسب بل جريمة كبرى ، ولذلك نرى الاعتدال أظهر ما يميز أديهم وفهم ، ولذلك أيضاً كان (أرسطو) مؤسس المدرسة الفكرية التي تمنح نفسها للمنطق والعقل وتحاذر كل الحذر من الشعور والماطفة

والآن وأحسبني قد بسطت بعض البسط طريقة (أرسطو) في النقد وقارنتها بالطريقة الشعرية الأخرى أحب أن أقول كلمة عن المذهبيين

إن كل ما يفعله (أرسطو) هو أن يشرح ويفصل ويرتب ويصنف ليعطينا في النهاية مجموعة من القوانين والقضايا ما أحسبها تخلق فناناً أو تصلح من شأن فنان آخر . وهو في هذا يخاطب الفكر لا الماطفة ، وإني كلما تصوّرتة يعالج (شكسبير) بضيق في الخيال ولا أدري كيف كان يتيسر (لأرسطو) أن يفعل هذا قد كنا نفهم بعض صفات فن شكسبير ومميزاته من نقد (أرسطو) له . على أني أشك كثيراً في أنه كان يجعلنا نفهم الشاعر نفسه ونمشقه مثلما فعل (كولريديج) و (هزات) و (تين) وفي رأبي أن أعلى أنواع النقد ما كان يؤثر في النفس ويوحى

خذ مثلاً آخر حديثه عن طول القصيدة القصصية إذ يقول : (يمكن في هذا الصنف من الشعر أن تعالج جميع أجزاء القصة معالجة مناسبة من حيث الزمن الذي يأخذه سيرحوادثها في الحياة ، أما في القصة المسرحية فالأمر يختلف إذ أنك لو عالجت حوادث القصة في مثل ما تعالجها من الطول في القصيدة القصصية ، كان الأثر الذي تحدثه في النفس أثراً سيئاً يجلب الملل والسأم ؛ قد يبدو هذا القول نظرياً ولكنه يقيمه بأن يقول : (إن صحة ما تقوله واضحة لأن كل من حاول أن يصوغ قصة سقوط (تروادة) صياغة مسرحية ، ولم يمن بأن يختصر في الحوادث أو يركزها قد فشل فشلاً تاماً)

كان (أرسطو) سريع الملاحظة ، حاضر الذهن ، عثقت النوع من القضايا التي لا يبرره سبب أو يشرحه مثال ، كما أن المنطق كان دائماً رائده في البحث والنقد — ذلك لأن طبيعة عقله كانت طبيعة عملية واقعية مثل طبيعة أهله وقومه الاغريق . وهو إن سرد لك قضية من القضايا ، أو نظرية من النظريات سردها في بساطة وغير كلفة تشمرك بأنك كنت تعلمها من قبل ، وأن عكس هذه القضية لا يمكن أن يوجد أو أن يكون صحيحاً ، كما أن قضايا تناز بأنها يمكن أن تستخلص منها قضايا أخرى صغيرة ، وأن تبنى عليها نظريات أكبر وأوسع أفقاً في رأى أرسطو كناقد أن الشعر نوع من التقليد والمحاكاة — تقليد الحياة والطبيعة — وفي رأى (شلي) كناقد أيضاً أن « الشعر هو ما يحيل الأشياء كلها جلالاً — فهو يزيد الجليل جلالاً ويزن القبيح ويجمله » — كلنا يعرف أن قول (شلي) هذا صحيح ، وأن الشعر فعلاً يؤدي كل هذا ، ولكن هل نستطيع أن نسي هذا القول تعريفاً للشعر ؟ هنا نشعر بالفارق بين الناقد الشعوري والناقد الفكري ، فكلاهما يمتد عن أشياء صحيحة حقيقية ، ولكن الثاني يملك نفس ما يقول وتبصره ، بينما يدحر الأول سمك ثم يتركك وعضى — وقد لا يكون تعريف أرسطو للشعر في جمال أو حلالة تعريف (شلي) لكنه ملموس محسوس نستطيع أن نبصره في وضوح وأن نبني ونتمدد عليه

وهناك فارق آخر بين الناقد يبدو لنا أيضاً من خلال تعريفهما للشعر ، فواضح من سطور شلي أن الناقد لا يعني فقط بطبيعة ما ينقده وما هيته ، بل يعني أيضاً بالمرض والرسالة